دراسة ومقارنة

الطبيعة توحى والشاعر ينطق

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

الطبيعة مصدر إلهام عظيم فى الأدب ، وللشعر فيها مجال فسيح . افتن بها الشعراء ، وتردد إليها الملهمون من أهل الفنون ، فوجدوا بين أحضانها منفسحاً من القول ومتسعاً من الكلام . ووجدوا فى مختلف مظاهرها صوراً تستحق التسجيل ؛ فانتضوا أقلامهم ، وجردوا ريشتهم ، يجمعون الألوان من هناك وهناك . ويؤلفون بين الظلال ، ويوازنون بين الأضواء ، ويخرجون من ذلك لوحات شعرية تمتاز من لوحات المصريين .

ولا شك أن اللوحة التى يخرجها الشاعر الموهوب يكون فيها من صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الأحساس ما لا يكون فى لوحة يخرجها رسام أو مصور .

ولقد أولع الشعراء من قديم بالطبيعة ؛ فأووا إليها وصوروها فى شعرهم تارة باسمة ، وأخرى عابسة ساخطة . ووصفوها على اختلاف الحالين كما فعل هوميروس فى الإلياذة ، فلم يجعلها ملحمة فقط للحروب والغارات ؛ ولكنها كانت معرضاً لألوان شتى من الطبيعة .

ولم يغفل شعراء العرب فى الجاهلية وصف الطبيعة ؛ ولكن اللوحات التى خلفوها لنا ليست من التنوع والكثرة وخصب الألوان وغناها بحيث تستحق أن نطيل الوقوف عندها والتحدث عنها . ولكنها على كل حال لوحات صادقة التصوير لتلك البيئة .

ولو قد أطال الشاعر الجاهلى تأملاته إلى الطبيعة ، وأمعن التفكير فى ظواهرها ، وعود نفسه السكون إليها والأنس بها والتحديق فيها لأخرج لنا صوراً رائعة من تلك الفيافى الممتدة ، والرمال المتناثرة والصخور العارية ، كما فعل الشاعر « توماس هاردى » فى بعض قصصه وفى كثير من أشعاره . فقد صور منطقة « المور » فى جنوبى انجلترا تصويراً صادقاً ؛ وهى إقليم مملوء بالصخور الموحشة ، والأشواك الجافة ، والوحشة الرهيبة . ولكن ربشة « هاردى » استطاعت أن تقلب وحشة هذا الإقليم أنساً ، وأن تخرج من تلك الطبيعة الجافة الخشنة ألواناً تعجب النفس . ولهذا تهافت السياح والزوار على مشاهدة هذا الإقليم بعد ما قرءوا رواية هاردى التى عنوانها « عودة المواطن »

وقد ترتبط ذكريات خاصة ببعض الأمكنة أو ما دار فيها من حوادث ، ويحن إلى الماضى الذى انطوى فى غبار اليوم ، كما فعل « امرؤ القيس » فى يوم الغدير بدارة جلجل . فقد أشار إلى ذلك فى بيت واحد من معلقته التى تبلغ الثمانين بيتاً . والبيت هو :

ألا رُبَّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

وكان حق امرىء القيس أن يقف طويلاً عند هذا الغدير ، لا أن يمر عليه مروراً عابراً سريعاً ؛ ولكن شاعراً فرنسياً كان له مثل هذا الموقف فصنع قصيدة عنوانها « البحيرة » . والبحيرة هى بحيرة ليمان بسويسرا ، والشاعر هو « لامارتين »

والبحيرات والغدُر والبرك كانت وحياً وإلهاماً للشعراء فى كل أمة وجيل ؛ فامرؤ القيس يشير إشارة سريعة إلى دارة جلجل وغديرها ؛ والبحترى يصف بركة المتوكل على الله العباسى فى قصيدة واحدة ، ويطول فيها نفسه ويجود فيها وصفه ، فيقول :

تنصبُّ فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حيل مجريها
تحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريِّق النيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

والسرىُّ الرفاء الموصلى الذى خرج من الموصل إلى حلب واتصل بسيف الدولة بن حمدان له شعر جميل فى وصف الغدر والبرك والمياه . وقلَّ أن تجد لشاعر عربى ما للسرى من الشعر فى البحيرات كثرةً وإجادةً .

ولعبد الله بن المعتز الشاعر المحسن التشبيه الكثير الوصف شعر فى البحيرات ، إلا أن الصنعة تغلب عليه وتعمِّل التشبيه يلوح فيه . ولو أنه أطلق الوصف على سجيته ، وأرسله على فطرته لكان شعراً تصويرياً للطبيعة التى أولع ابن المعتز بتصوير كثير من مظاهرها . فإذا سمعته يقول :

غدير ترجرج أمواجه هبوب الرياح ومر الصبا
إذا الشمس من فوقه أشرقت توهمته جوشنا مذهبا

بدا لك أثر الصنعة . وأين هذا من قول البحتري في المعنى نفسه :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

* * *

ولقد أوحت بحيرات سويسرا الجميلة إلى كثيرين من الشعراء أمثال « لامارتين الفرنسي » و« اللورد بيرون »، «وشيلي» الإنجليزيين . واللورد بيرون له في رحلته الأولى إلى جنوبي أوربا أشعار طبعها ما بين سنتي ١٨١٢ ، ١٨١٨ . وفيها إشارات جميلة إلى ذكرياته السعيدة على بحيرات سويسرة

وفي هذه المناسبة أستطيع أن أذكر اسم الكاتب الأمريكي « هنري دافيد ثورو » الذي نزح من المدينة الصاخبة سنة ١٨٤٥ إلى غدير (والدن) وغابته الفيحاء ؛ ووجد في زقزقة الطيور ، وطنين الحشرات ، وخرير المياه وحفيف الشجر أنساً لنفسه الظامئة إلى رحيق الطبيعة . وله في ذلك كتاب اسمه « والدن » The Walden كتبه بالنثر إلا إنه يفيض بالشعور والأحاسيس والفناء الكلي في الطبيعة وتقديسها كما تقدس الآلهة

ولا نجد شاعراً ـ فيما نعرف من الأدب العربي والإنجليزي والفرنسي ـ أعطى من نفسه وشعره للبحيرات والغدر ومساقط المياه ما أعطاه الشاعر الإنجليزي « وليام وردسورث » لمنطقة البحيرات الإنجليزية المعروفة باسم Lake District

كان « وردسورث » شاعر الطبيعة في أي مظهر من مظاهرها ، وكان يعتقد أن الطبيعة تحمي الإنسان من الشرور ، وتجعل الخير أليفاً عنده حبيباً لديه ، كما أشار إلى ذلك في ديوانه المعروف « الفاتحة » Prelude . ولهذا قضى حياته جوالاً في منازه أوربا وانجلترا . وعاش في قرية « جراسمير » بين البحيرات الإنجليزية التي ألهمته ديوانه المعروف باسم « شعر البحيرات » ودفن هناك في الأرض التي ألهمته ، وأوحت إليه أسرار جمالها . وقد أتيح لي أن أزور قبره وقبر شقيقته في تلك البقعة الجميلة الهادئة من بقاع شمالي انجلترا

ومنطقة البحيرات الإنجليزية مدينة في التعريف بجمالها للكاتب الناقد « جون رسكين » الذي أدرك «وردسورث» وعاش بعده زماناً ؛ فقد أبان للإنجليز جمال هذه المنطقة مما جعل أغنياءهم يشدون إليها الرحال بدلاً من زيارة بحيرات سويسرة . ولهذا أقام له الإنجليز في تلك المنطقة تمثالاً اعترافاً بفضله ووفاء لحقه

* * *

أما وصف السماء والنجوم والسحاب والمطر والرعد والبرق والليل ، فقد ورد كثيراً في شعر العرب . وهو وصف مجرد لا تمسه عاطفة ، ولا تدخله خوالج النفس ولا هزات الحس . ولكنه على كل حال تصوير صادق ، كثير الإحاطة للتفاصيل . ومن فرسان هذا الميدان ابن خفاجة الأندلسي والسري الرفاء الموصلي وأبو تمام الذي أكثر من وصف الغيث والسحاب ، وابن الرومي ، وابن المعتز الذي يقول في وصف سحابة

وموقرة بثقل الماء جادت تهادى فوق أعناق الرياح
كأن سماءها لما تجلت خلال نجومها عند الصباح
رياض بنفسج خضل نداه تفتح بينه نور الأقاحي

ولأبي تمام هذه الأبيات الرائعة في وصف الغيث :

لما بدت للأرض من قريب تشوقت لو بلها المكوب
تشوق المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب
وفرحة الأديب بالأديب وخيمت صادقة الشؤبوب
فقام فيها الرعد كالخطيب وحنت الريح حنين النوب
والشمس ذات حاجب محجوب قد غربت من غير ما غروب
والأرض من ردائها القشيب في زاهر من نبتها رطيب

ومن شعراء الإنجليز في هذا الباب « شيلي » وله قصيدة عنوانها « إلى الليل » ، وهي من "نوع العاطفي ؛ والشاعر « جراي » وله « أغنية الربيع » ، والشاعر « كيتس » وله « أغنية الخريف » ، والشاعر « كامبل » وله « أغنية الشتاء » . وهو شعر يذكرنا بما قاله البحتري في وصف الليل والربيع .

ويذكرنا كذلك بقصائد رائعة للسرى الرفاء وأبى تمام والبحترى وابن الرومى فى وصف الربيع والخريف والشتاء والسحاب ، وهو شعر منثور فى مواضع من دواوينهم ومن السهل الرجوع إليه .

أما البحر ذلك الخضم الواسع الذى يقصر الطرف عن إدراك مداه ، وتعجز السنون عن سبر أغواره ، فقد كان له من الشعر العربى نصيب ، إلا أنه ضئيل ، وقد أشار إليه امرؤ القيس إشارة عابرة فى معلقته وهو يشبه الليل بموجه ، كما وصفه ابن خفاجة الأندلسى بثلاثة أبيات . ووصفه الشاعر الأندلسى يحيى ابن الحكم البكرى المشهور بالغزال فى قصيدة طويلة قالها يصف رحلته إلى القسطنطينية موفداً من قبل الخليفة عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام سنة ٢٢٥ هـ إلى قيصر أميراطور الروم فى مهمة سياسية ، والقصيدة لطيفة البحر والتصوير ، ومنها :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبـــال
وتولتنـــا رياح من دبور وشمـال
شـقت القلعين وانبثّـــت عرى تلك الحبال
وتمطّى ملك المـو ت إلينا عن حيـال
فرأينا الموت رأى الـ ـعين حالاً بعـد حال

ولم يذكر نفح « الطيب » من القصيدة إلا أحد عشر بيتاً اخترنا منها هذه الخمسة . وهى فى الجزء الأول ص ٤٤٤

وللدكتور جورج صوايا من شعراء المهجر فى أمريكا الجنوبية قصيدة فى البحر المتوسط تجدها فى الصفحة التاسعة وما بعدها من ديوانه « همس الشاعر » المطبوع فى « يونس أيرس » ألا إنها ضعيفة الصياغة ، على الرغم من حفولها ببعض المعانى التى توحيها وقفة أمام هذا البحر الذى شهد ازدهار حضارات ومصارع دولات

وأحجم شاعر أو — ناظم — عن ركوب البحر خشية أن يذوب فيه ، لأنه من طين ... ! ولكن شوقى وحافظ ركبا البحر ووصفاه . ولحافظ رائيته التى مطلعها :

عاصف يرتمى وبحـر يغير أنا بالله منهما مستجير

ألا إن ذلك قليل على الشعر العربى ، وأين ذلك من قصيدة « وردسورث » التى عنوانها « على شاطىء البحر » ؟

أما الرياض والأشجار والأزهار ، فلم يترك شعراء العرب نوعاً منها إلا وصفوه ، فابن خفاجة له فى شجر النارنج والأراك والريحان شعر كثير . والسرى الرفاء له شعر كثير جداً فى وصف الرياض والبساتين والنرجس وشجر الليمون وزهر السوسن والورد وشقائق النعمان والأترج والنخيل ورياض الموصل ومتنزهات الشام

وتلك ناحية فى الشعر العربى تذكرنا بشعر « هريك » فى النوار والبراعم ، وبقصيدته الفاتنة فى زهرة « الدافودلس » التى يفتتحها ويختتمها بهذين البيتين :

أيتها الزهرة الجميلة ! نحن نبكى لأن نراك
تسرعين الخطوات إلى الذبول
مثل أمطار الصيف أو قطرات الندى
التى تمضى إلى غير رجوع

كما تذكرنا بقصيدة « مارڤل » الإنجليزى التى عنوانها « أفكار فى حديقة »

ولقد أخذ الشعور بوصف الطبيعة يزداد عند نفر من شعراء المشرق ، وشاع عند شعراء المغرب ؛ وظهرت الطبيعة مجلوة فى شعر أمثال ابن خفاجة وابن حديس وابن جهور وابن زيدون وابن عبدون وابن سهل . وهذا الأخير كان يمزج فى شعره بين وصف الطبيعة ووصف العواطف وخلجات النفس كما يفعل الفرنسيون أمثال : هوجو ، ولامارتين ، والكونت دى ليل ، وألفريد دى موسيه . ولكن الفرق بعيد ..

ولقد ظهر فى مصر فى أيامنا هذه (الشاعر الهمشرى) ، الذى عنى بتصوير الطبيعة المصرية فى مختلف صورها . تسمع وترى وتحس وتشم فى شعره كل شىء فى الطبيعة ، حتى رائحة الكلأ . وكان يرجى له فى هذا الباب مجال ، وتناط به آمال لولا أن الموت عاجله وهو نضير الشباب

ولعل قراء العربية يجدون فى شاعر آخر « شاعر البرارى » مثالاً لشاعر الطبيعة المصرية البحت الذى يغنى على قيثارتها فى كل مكان .

محمد عبد الغنى حسن